

مالك حداد

الأديب الفنان

د. باديس فوغالي



منشورات وزارة الثقافة

الجزائر

سلسلة أدب الفتوة

تحت اشراف:
د. ربيعة جلطي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

2005

شكر

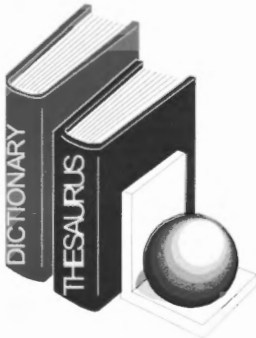
أشكر الكاتب سليم بوفنداسة الذي سهل لي البحث
في ملف مالك حداد، وتزويدي ببعض القصاصات من
جريدة النصر.



استهلال:

مالك حداد... مسيرة حياة زاهرة بالنضال،
والأمل والانكسار، مالك حداد الطفل، والشباب،
والمبدع، الشاعر، والروائي، وأخيرا المثقف،
والمسؤول في أكثر من قطاع، كلمات تختصر
حياة هذه القامة الإبداعية، بكثير من الصدق،
والاعجاب.

باريس فوغالي



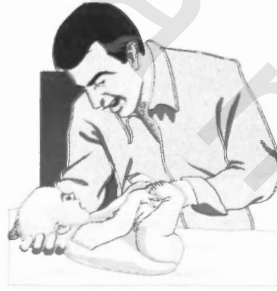


ماذا يعني تاريخ الخامس جويلية في حياة هذا المولود الجديد، الذي احتفت بقدومه أسرة حدّاد بقسنطينة ذات عام 1927.

كان يوما صيفيا جميلا، على غير العادة لطف جو هذا الصباح المشبع بالنسمات الخفيفة الوافدة من رئة المدينة "غابة جبل الوحش"، وقسنطينة متعبة بأغلال "الكولون" من مختلف الجنسيات.

الفرنسيين وحدهم يستمتعون بهذه الشوارع المزينة بالورد والزهر، جيئ بهم إلى هذه المدينة العتيقة.

المولود الجديد أقبل إلى الحياة، وأطلق صرخته الأولى في بيت عريق، جبل على التمسك بالعادات البربرية، الموروثة، وحب الوطن.



—ماذا أسميه؟

دار هذا السؤال عدة مرات في ذهن والده، الذي يمتحن التدريس، ويعرف الكثير من التاريخ القديم، مثقف نادر، ووجه من وجهاء المدينة. سأعلمه أحسن تعليم وأدخله المدارس الفرنسية لأحارب به الفرنسيين، هكذا كانت التهيئات تتوارد على خاطره، وهو خارج البيت يتربق البشرى التي سوف ترف إليه بعد ساعة، أو بضع ساعة.

لقد كانت الزغرودة التي شقت أجواء البيت الأنيق في الحي الأوربي
"فوبور لامي"، الأمير عبد القادر حاليا كافية لمعرفة أن المولود ذكرًا.

همل، وأقبل، فإذا بالحاجة تسبقه إلى الكلام

— ماذا تسميه؟

دون أن يفكر انفلتت من لسانه:

— مالك، أسميه مالك.



مدينة قسنطينة

أجابها هكذا دون أن يتمهل، وكأنه كان على موعد مع هذا الحدث.

ولد إذن مالك حداد، جاء إلى الدنيا في يوم أقل ما يقال فيه، انه سوف
ينقل الجزائر برمتها، وليس قسنطينة وحدها من حياة الذل، والهوان إلى
حياة الكرامة والكبرياء.



لقد ارتبط مولده بيوم مشهود سوف تعيش الجزائر أفراده ومباهجه
بعد خمس وثلاثين سنة من هذا التاريخ، كما ارتبط مولده كذلك بذاك
اليوم المشؤوم الذي جعل الجزائر تتحول من بلد متوسطي غني، وأهله
متعلمون إلى بلد يرزح تحت نير الذل، لقد كان الخامس من شهر جويلية
مفارقة تاريخية عجيبة في حياة "مالك"، عرف ذلك بعد سنين.

كانت ملامحه الجميلة، ونظراته البريئة الضاحكة في دلال وعز،
وهدوء إذا امتلأ "الصالون" بالأنس، توحى بأن هذا الصبي لا يكون إلا
شاعرا، أو أدبيا ذا شأن، لقد كان وهو في مهده يصيح بسمعه، يلتقط كل
ما كان يدور بين الضيوف الوافدين من حين إلى حين إلى بيت والده،
وكأنه يعي ما كان يدور بينهم من أحاديث طريفة حول صعوبة الحياة،
ومشقة العيش.



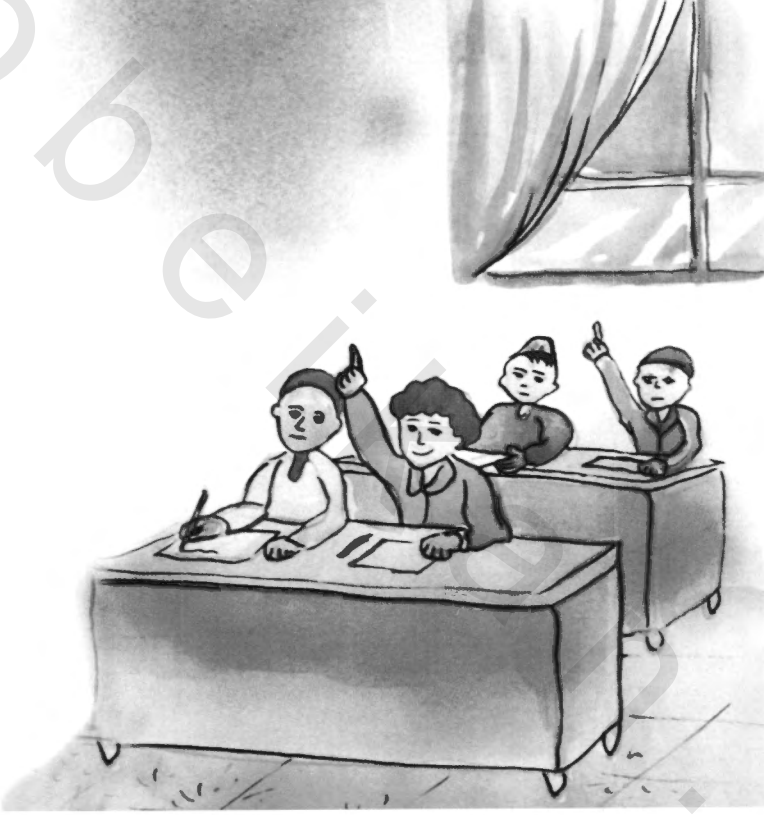
لقد كان الصبي "مالك" طلق القسمات، ضاحك الملامح، لايزعج
والدته ببكاء من غير سبب كما يفعل عادة الصبيان.

هاهو قد بدأ ينمو وينع، وهاقد بدأت تختفي في أفعاله، وردود أفعاله تلك الشقاوة المعهودة لدى الصبيان في مثل سنه، وهاقد بلغ السادسة من عمره، ولأن والده مدرس ناجح، ومثقف من الطراز الرفيع، أدخله ذات سبتمبر المدرسة النظامية التي كانت حكرا على أبناء الفرنسيين، وأبناء الأسر الوجيهة في المدينة، فقد كان مخيرا بين أن يدخله المدرسة النظامية التي تشرف عليها الحكومة الفرنسية، أو يسجله ضمن الأطفال الذين يقصدون مدارس جمعية العلماء المسلمين، التي كان يشرف عليها صديقه "الشيخ عبد الحميد بن باديس".

فكر طويلا، ثم هداه تفكيره إلى إثارة المدرسة النظامية، لا لأنه يحبها أو يؤثرها على مدارس الجمعية، وإنما ليكون قريبا منه في المدرسة التي يشتغل فيها.



لقد أراد لـ "مالك" أن يجابه الفرنسيين حين يشب ويكبر بلغتهم،
استقر والده على هذه القناعة، وأدخله مدرسة "سيدي جليس"
الابتدائية، التي كان يدير شؤونها بعد أن قضى سنوات طويلة
في التدريس.



مدرسته جميلة ونظيفة، تعلم في حجراتها الأدب واللباقة، وأخذ
من مدرسيها، ومدرساتها أصول النظام، واحترام الوقت.
كان "مالك" منذ طفولته الأولى من أشد المحافظين على الوقت،
ومن أشد الناس انضباطاً للواجبات، كان يحب التأنيق، وارتداء ما يتطابق
مع لون بشرته، وقامته الفارعة.

لقد ورث عن والدته "حمامة" هذا الذوق الرفيع، فقد كانت شاعرة دون أن تكتب في حياتها يوما بيتا من الشعر... كانت شاعرية في سلوكها، ومعاملاتها للناس، حقيقة لم تكتب شيئا يسمى الشعر، لكنها كانت من حين إلى حين، وفي مناسبات عديدة تقول كلاما يشبه الشعر، في بساطة وعفوية، فقد كانت تجيب حين تسأل عن أي الأبناء تميل أكثر، ومع أنها كانت تحب كل أبنائها بنفس القوة والوهج، فقد كانت تقول:



- أحب "مالك" كما أحسه، وأحسه كاملا
بغير استثناء، وبكل التفاصيل.

لقد أخذ مالك عن هذه الأسرة المتعلمة،
المثقفة، والمتعلمة تعليما عميقا ذا طراز عال،
جعل منه أديبا وشاعرا ذا شأن.

لباس تقليدي قسنطيني

حرص والده أن يتشبع ابنه بالروح الوطنية العالية، وأن يتزود بزراد علمي كبير، فكان على الرغم من حداثة سنه يرغمه على تحرير مواضيع الإنشاء الأدبي، ويحرص أن تكون دائما حول الشخصية الوطنية، والثقافة الإسلامية، وبموازاة ذلك كان يدفعه إلى المطالعة الحرة، التي فتحت مداركه، وغذت روحه بذوق أدبي رفيع، قلما توفر في رفقاءه في المدرسة..

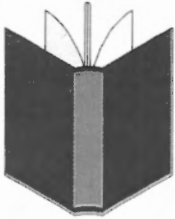


كان أثيرا لدى معلميه لنجافته وحسن شمائله، وكانت معلمته الفرنسية "فرانسواز" تحبه، وتخصه ببعض الهدايا، كان جميل الملمح، فقد حدث مرة وهي جالسة خلف مكتبها في قاعة التدريس تراقب تلاميذها الغارقين في نقل الدرس المقيد على السبورة، رأت ملامحه تتبلور، وتتقاسم، حتى غدت في صورة ملمح رجل يافع، بهي الطلعة، وسيم، فعلمت بتلك الصورة التي رسمها ذهنها، منذ ذلك الوقت صارت تحبه، تفضله على كل زملائه في الصف، ولأجل ذلك كان "مالك" يلقي المشاكل من قبل أقرانه.



— لماذا تحبه هو؟ ولا تحبنا نحن، هل هو خير منا؟..

كان بعض أترابه يبغضونه، لهذا السبب، لكنهم في قرارة أنفسهم كانوا غير ذلك، فقد كانوا يحبونه، ويرون فيه المثل الذي يجب أن يقتدى به.



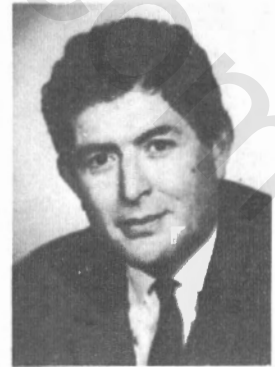


كان "مالك" مولعا بقراءة الأدب الفرنسي،
عملا بتوجيه والده، فقد قرأ وهو حديث السن أغلب
مؤلفات "بالزاك"، و"فولتير"، و"ستاندال"،
و"فيكتور هيجو"، وغيرهم، على الرغم من الصعوبة

التي يكتبون بها، كما قرأ روايات مترجمة لكتاب غير فرنسيين، فقرأ لـ
"غوركي"، وأعجب بروايته "الأم"، وقرأ لـ "بوشكين"، وأعجب
بقصصه الهادفة الرائعة الجميلة، وكان وهو يطالع هذا الكتاب أو ذاك
يشعر أنه صاحب الكتاب الذي بين يديه، لذلك كان يقرأ وفي الوقت
نفسه يحلم أن يصير كاتب رواية.



حين انتقل إلى ثانوية "رضا حوحو" التي كانت تسمى في عهد
الاستعمار ثانوية "دومال" كان مالك يزداد تألقا في شكله، وفي تفكيره،
وكان في هذا السن أشد عناية بهندامه، انتسب
إلى هذه الثانوية العريقة التي كانت مقصورة
على أبناء الفرنسيين، ووجهاء العرب المشتغلين
في حقل التعليم والقطاعات الحكومية التابعة



لفرنسا، لقد كانت ثانوية هائلة، في هندستها وطريقة بنائها، فهي أشبه بالقاعة المحصنة، لها باب عملاق، يطل على الفراغ المشرف على وادي الرمال المتدفق عبر أقواس رومانية، وجسور عتيقة مضى على تشييدها قرون من الزمن.



باب الثانوية كبير وعظيم، حين كانت تدفع دفتاه العملاقتان لاستقبال التلاميذ، كان يراه "مالك" شبيها بفوهة كائن خرافي يتأهب لالتهام فريسته، يستمر فتحه لدقائق معدودة، ثم سرعان ما تصلصل دفتاه، فيطبق على التلاميذ المزدحمين في مآزرهم ذات اللون الموحد.

بعد سنوات من الجهد والمثابرة، والاجتهاد ها هو "مالك" يفوز بنيل شهادة البكالوريا شعبة الفلسفة والآداب، كان ذلك عام 1946، وفي الثانوية نفسها توطدت علاقته بالشاعر "رولان درخان" الذي كان معروفا آنذاك فكانت صداقته له بمثابة الشرف التي أطل من خلالها على

عوالم الشعر الفسيحة.

مالك صار يافعا، ومتوجا، توج جهده بإحرازه شهادة "الباكالوريا" التي كانت صعبة المنال، والآن عليه أن يفكر في العمل، فأبواب العمل

لاسيما في قطاع التدريس ممكنة وبسهولة ويسر، أشار عليه والده بضرورة مواصلة دراسته الجامعية في جامعة "إيكس أون بروفانس"، لكن حبه للمغامرة، جعله يعزف عن مواصلة الدراسة على الأقل في هذا الوقت، ويفضل التوجه إلى "ليبيا" الشقيقة للعمل مدرسا في إحدى مدنها الصحراوية، كان عمله



مالك في ليبيا

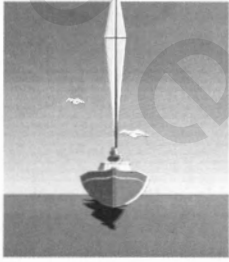
في مدينة "الراث" شاقا، لكنه كان ممتعا.

من حسن الصدف أنه درّس طفلا صار له شأن كبير فيما بعد، كان ذلك الطفل حاد الذكاء، نحيف البنية، في عينيه بريق ولمعان يلفت الانتباه، ذاك الصبي هو الرجل الأول في ليبيا لسنوات طويلة، إنه العقيد "معمر القذافي" الرئيس الليبي.





كان "مالك" مسكوناً بحب الصحراء، ومداغبة رمالها المترلقة الناعمة، كان يستهويه ليلها الدامس، الهادئ، العميق، فيرحل في ثناياها هائماً، سرحاً، تعلقه بالهدوء الصوفي والإنصات إلى الصحراء في الليالي الصامتة، جعلته يمكث ببلدة "الراث" عامين كاملين، ولما أكثر عليه والده الإلحاح للالتحاق بقسنطينة. ثم السفر إلى فرنسا لمواصلة دراسته الجامعية، رضى إلى رغبته هذه المرة، ولم يرد تخيبيه.



عاد إلى قسنطينة كما أراد الوالد، ثم سافر بعد ذلك إلى فرنسا، هناك درس عامين الحقوق بجامعة "إيكس أون بروفانس"، غير أن توجهه الأدبي، حال بينه وبين مواصلة الدراسة، فانقطع ليلتحق بقطاع التعليم، وممارسة هوايته المفضلة، وهي الكتابة الشعرية والإبداع الروائي.



مالك أثناء الخدمة العسكرية الإجبارية

راسل "مالك" العديد من الصحف الفرنسية المهمة

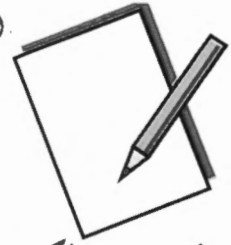
بالثقافة والإبداع، ونشرت له جملة من المقالات، في هذه

الفترة بالذات صادف أن قرأ "لويس أراغون" الشاعر

الفرنسي الكبير، وكان آنذاك مديرا لجريدة "لوسوار" مقالا لـ "مالك"،

فاتصل به بعد أن تنبأ له من خلال أسلوبه الشيق الممتع، وبناء عبارته

المحكم، ولغته الشاعرية الطافح بالصدق والصوفية، بمستقبل أدبي زاهر.



وكان كثيرا ما يقدم له النصح والتوجيه لما توسم في كتاباته روح

الأديب الموهوب، نصحه بضرورة احترام المعايير التي يمكن أن تجعل

القارئ طرفا شريكا في النص، وكان يلح عليه بالتأكيد على المراجعة

والتنقيح قبل أن يخرج كتاباته وأشعاره إلى القراء،

لأن العمل المتقن قيمة إنسانية تثنىها كل

الشعوب والأمم على مر تاريخ البشرية،



فقد قيل أن "المهاتما بوذا"، أي الحكيم "بوذا" كان يقول :
"إذا عملت عملاً فائقه".

وكان الفيلسوف اليوناني "سقراط" يؤكد على ضرورة الإتقان،
فيقول:

"إذا عملت عملاً فائقه، فإن الناس لا ينظرون إلى كم فرغت فيه من
الوقت بل ينظرون إلى جودته وإتقان صنعه".

وكم كان محمد (ص) يلح على تعميق الإتقان في العمل بقوله:

"إن الله يحب أحدكم إذا عمل عملاً أن يتقنه".



فرنسا لم تكن في حياة "مالك" إلا محطة
من المحطات الكثيرة التي حط رحاله بها لبعض الوقت.



كان معجبا بمدنيته، لقد صادق كتابا عديدين ذوي أصول فرنسية،
وكانت تجمعهم بهم علاقات ود واحترام قوية وممتنة، كانوا مثله وطنيين
يحبون أوطانهم، لم يكونوا عدائين، حقيقة لقد خلق الأدباء ليكونوا أدباء
وحسب، وعلى الرغم من مصداقية هذه الحقيقة، ومعارضة بعض

الأدباء، والمثقفين الفرنسيين للسياسة الفرنسية،

الاستطانية المنتهجة منذ قرون، لم يكن "مالك"

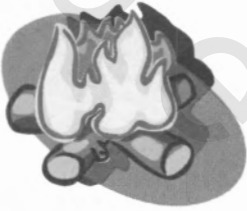
مرتاحا في هذا البلد، الذي قطع أبناؤه ذات يوم



البحر الأبيض المتوسط مدججين بالأسلحة، والعتاد الحربي المتطور،

وغزوا بلاده الجزائر، يدفعهم إلى ذلك الجشع، وغريزة التوسع، ذاك

اليوم الذي تزامن ذكراه ذكرى



يوم مولده، كان يشعر إزاءه "مالك" بالفتور،

وكأنه لا علاقة بعيد ميلاده، لكن هذا

الإحساس سوف يتبخر، ويصير "مالك" وأسرته يحتفلون بهذا اليوم، حين

يصير ذلك اليوم هو نفسه التاريخ الذي نقل الجزائر إلى فضاء الاستقلال

والحرية.



لقد وهب "مالك" قلمه للجزائر الصامدة، المعطاءة، الحنون. فھر

"السين" هذا الذي يعانق ويلتف بفرنسا، كأنه يحرصها من الشرور،

يذكره بالجرائم التي أرتكبها السفاح "موريس بابان" في حق الجزائريين في

العزل بني جلده، لم يجد من وسيلة تطفي حقه، وكرهه للجزائريين
سوى رميهم أحياء في أعماق النهر.

في الوقت ذاته يمتد خيال مالك إلى احتضان وادي الرمال الذي يعانق
مدينة "قسنطينة" الناعسة في عزها الحضاري الممتد إلى قرون وقرون.

الجسور المطلة بقسنطينة



لقد كان هذا الوادي مفخرة "قسنطينة"، وشريانها النابض بالحياة،
تماما كما هو الحال بالنسبة لـ "نيل" مصر، مصدر حياة، ورفاهية
المصريين منذ الفراعنة.



وادي الرمال، لم يكن مجرد وادي حياة "مالك"،
إنما كان سر تعلقه بقسنطينة، وجذوره الممتدة
في أعماق التاريخ القسنطيني. فرنسا منحته لغة



يبدع ويتحدث بها، وبها يرتب أفكاره، لكنها سلبته أغلى ما يمكن أن يعتز به المرء..



لذا عقد "مالك" العزم أن ينتصر للكادحين من أبناء وطنه.. كان قلمه صارما، إذا تعلق الأمر بالدفاع عن الوطن، والوطنية، ورومنسيا رائعا، إذا هام بخياله الصوفي الشفاف، لغة "مالك" لم تكن فرنسية عائمة في عبقها الفائح من قصر "الفارسي"، كانت تنبض بخفقان الوطن وكانت منفاه الذي لا يستطيع التخلص، أو الهروب من حصاره.

قال ذات يوم مجيبا الفرنسي "غابرييل أوديزينو"، الذي حدثه باعتداد معجبا ومبديا الولاء لفرنسيته وهو يصرح: "اللغة الفرنسية هي موطني" فلم يجد "مالك" من بد سوى الزهو وهو يحبه بثقة:

"أما أنا فالفرنسية التي ترعّم أنها وطنك، هي منفاي، بكل التفاصيل".



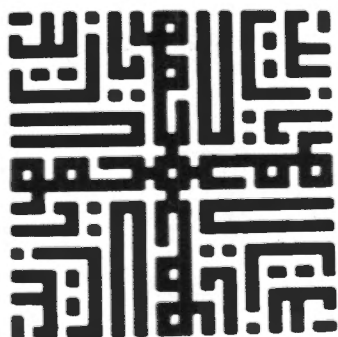
وقد كتب يوما، يقول في سياق ظروف الغبن التي لحقت بأبناء وطنه، بسبب السياسة التدميرية التي طبقتها فرنسا على الجيل الجزائري الجديد



(... كان التلميذ الجزائري يلقي كل شيء بالفرنسية منذ تعليمه الابتدائي المبكر، ويستمر ذلك في الثانوي، أما العربية، فكانت تدرس كلغة أجنبية.. لقد كانت لغتنا الأم منفية في بلدها).

وكم حزه ذاك الغبن، الذي مس أغلب الشريحة الجزائرية المتعلمة، التي كادت تفقد لسانها العربي، ولم ينج هو ذاته من تلك المآسي.

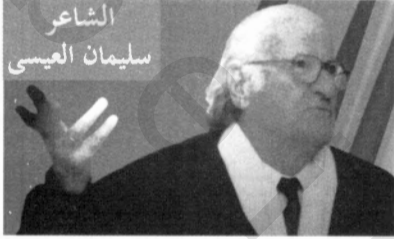
فقد قيل عنه انه وفي إحدى المأموريات التي كلفته بها جبهة التحرير الوطني إلى دمشق، صيف سنة 1961، أحس وهو يواجه الجمهور السوري بما يشبه الغصة في حلقه، لأن لسانه لم يكن يقوى على النطق بالعربية، على الرغم مما كان يجيش في صدره من خواطر وأفكار وطنية يريد إيصالها بحرف الضاد. لما شرع في إلقاء محاضرته، صرخ داميا، موجه الاحساس والوجدان، فيقول:



(إن مجرد وقوفي اليوم بينكم لأتحدث إليكم بالفرنسية، وأنا العاجز عن التعبير عن أفكاري باللغة العربية.. إن وضعي هذا يكفي ليكون

برهانا على ما نعانيه نحن الجزائريين.. آه كم كنا ضحايا أشنع، وأرخص أسلوب طبق في العصر الحديث بغية إفقادنا شخصيتنا الوطنية).

وهو المشهد الذي ترك أثرا عميقا في وجدان الشاعر السوري "سليمان العيسى" الذي تغنى بالثورة الجزائرية في أجمل قصائده، فانفعل بما صدر عن "مالك" حول العربية، واللسان العربي، فكتب قصيدة جميلة أهدها إياها ل، يقول فيها:



سأكتب عنك بالجمر
سأكتب عنك بالعربية العطشى إلى النار
سأكتب لك يا "مالك"
سأعجل بالحروف الخضر كل عطاش آمالك
سأكتب عنك أنشودة
ترن بأحرف القرآن بالأوراس
سأكتب عنك.. لاحزن، لا ألم، لامنفى.



وعلى الرغم من أن "مالك" كان يردد في العديد من المناسبات أن اللغة الفرنسية حازر بينه وبين وطنه أمتن وأعمق من حازر البحر الأبيض المتوسط، فإنه كان يلقي الاحترام الكبير من قبل أدباء ومفكري أوروبا، اعترافا بشاعريته، وإقرارا بوطنيته الجزائرية الخالصة.

لقد عرف "مالك" مدنا عديدة وطاف في أنحاء الدنيا مبعوثا خاصا
لجبهة التحرير الوطني.



عاش في فرنسا فترة طالبا وموظفا في حقل التعليم، عاش بعض أدبائها
ومثقفاتها، كما عرف "سويسرا" بهدوئها، وحياديتها على مر عقود من
الزمن، عشق حدائق "لوزان"، وملاً صدره بأريج عطورها، وفتن بجمال
حسنائها.





اختلف إلى جامعة "إيكس أون بروفانس"
وترك قطعا من شبابه في مدرجاتها، وردهااته المفضية
دائما إلى مكتبة.

أحب "تونس" الشقيقة وهام بدفئها الأخاذ، ولطافة أبنائها، أحبهم
حتى النخاع... زار "موسكو" عاصمة البرد والصقيع.. لقد تأثر بفكر
أبنائها سنوات طويلة، حين اكتشف زيف تلك الظنون، تخلص
من تقدميته، وتبنيه الأفكار الشيوعية، لقد كان تقدما حقا، لكن وظف
تقدميته لتحرير وطنه من براثن ذل الاستعمار وجبروته، كان حبه
للجزائر أقوى من أي إيديولوجية ساقطتها تحولات الدول العظمى،
وصاغت تجارب الشعوب المناضلة من أجل السلام.

زار الهند، وساح في شوارع دلهي الجديدة،

المليئة بالسحر، والخرافات، بلد الأساطير

والعجائب.. أعجب بكثرة أبقارها التي تزاخم

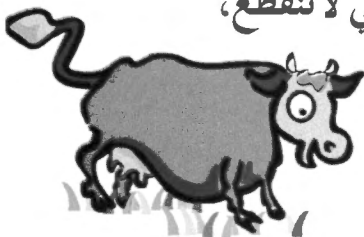
البشر في مآكلهم، وفي مشربهم، يراها في

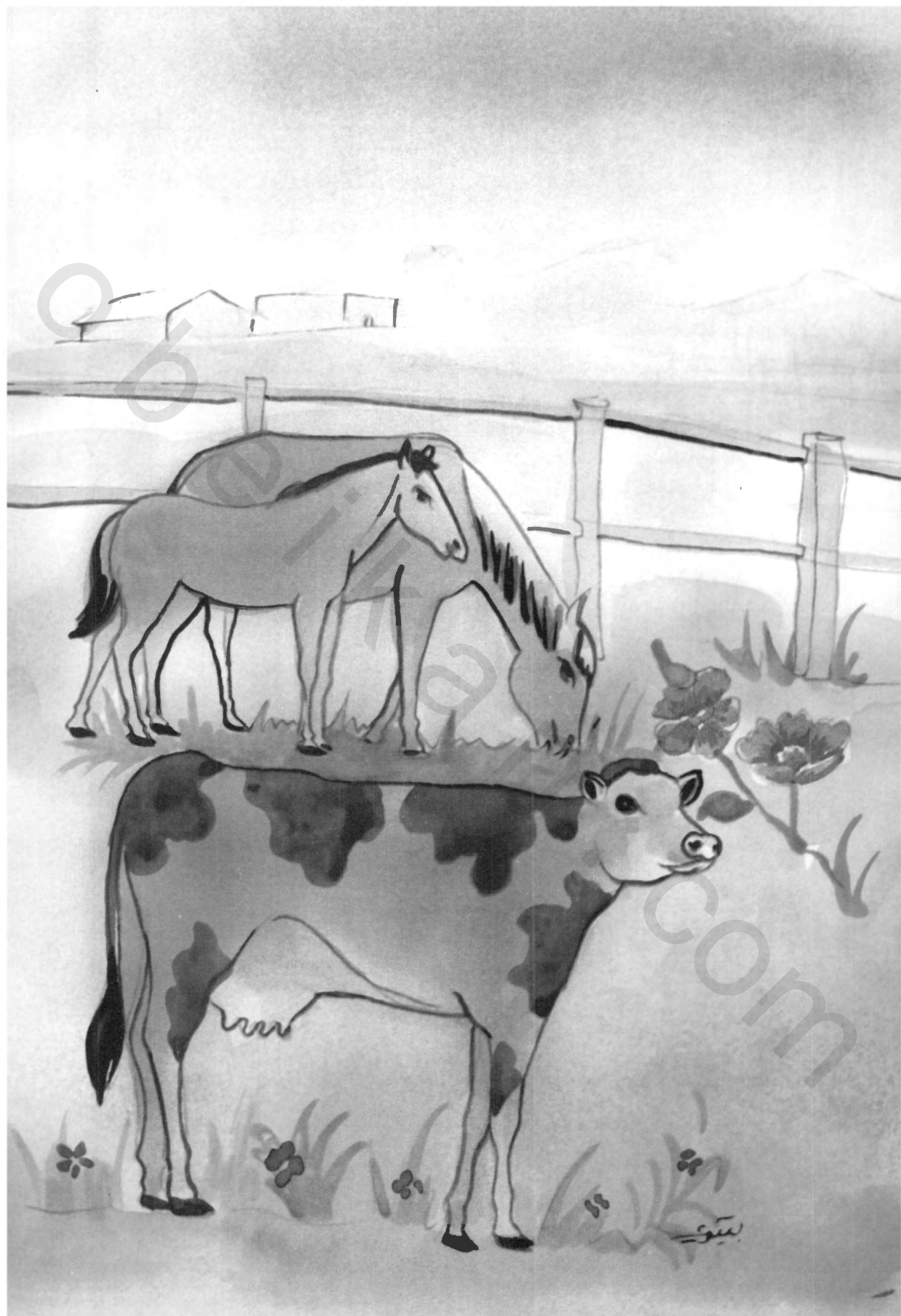
الساحات والحدائق، تمارس حررتها الغريزية بكل راحة، والناس

منشغلون وراء حاجياتهم اليومية، ومتاعبهم التي لا تنقطع،

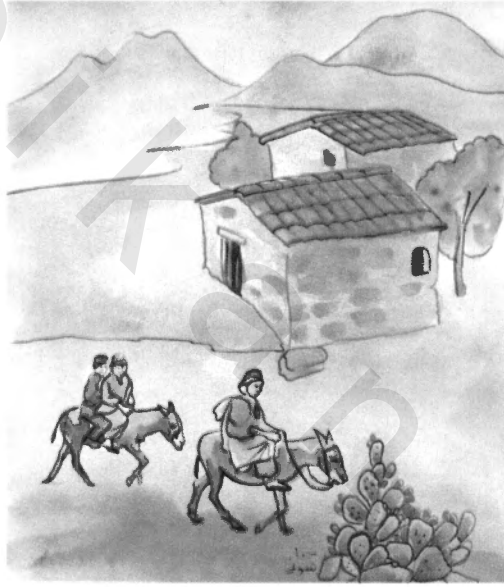
أعجب بهذه الأبقار إعجاب الشاعر، الذي

تحركه المشاهد الاستثنائية..





لكن وعلى الرغم من زيارته لكل هذه المدائن والعواصم، ومكوّثه فيها لبعض الوقت، مؤدياً مهمة ما أوكلته بأدائها جبهة التحرير الوطني.. على الرغم من هذا كله، ظلت مدينة "قسنطينة" أقرب المدن إلى قلبه، ووجدانه، إنها المدينة التي تلملم انكساراته، تحضن أمانيه كلما شعر بالحنين إلى منبته الأول، تبقى هذه المدينة العنوان والمفتاح الذي يفتح به تلك المشاعر الانسانية المعبقة بالتاريخ، والصفاء في أبعد معانيه.



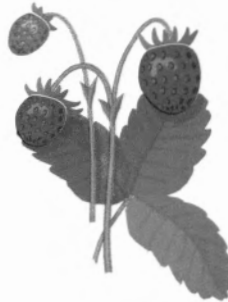
مالك حداد هذا الفتى الجميل، البهي الطلعة، أحب بلاده، وهام بشورتها. حين انفجرت الثورة، انفجرت في كيانه قريحة الشعر، فكتب أجمل القصائد التي تقطر بالوطنية وتتغذى من الوعي الوطني والنضالي العميق، كما تدفقت في كيانه الرغبة الجامحة لكتابة الرواية، مستلهما أحداثها مما عاشه شعبه، وعاناه بوجدانه ومشاعره.

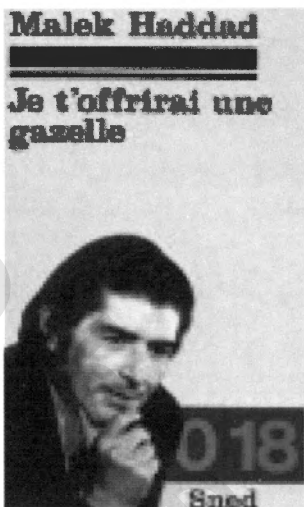
لقد كتب أشعاره بلسان حال شعبه، مجسدا يومياته، ومتابعه المتعددة،
وهام بثورة التحرير التي كانت جبارة ونادرة في حياة الشعوب، عشق
الثورة، أحب صانعيها، وغنى لهم أشعاره، وصنع من مواقفهم النبيلة
العظيمة أعمالا روائية هائلة.



ولأن الفرحة بالاستقلال كانت عظيمة،
وعارمة، خرج الناس بمختلف الأعمار،
فتيانا، ونساء، وشيوخا. وعجائز، يهتفون،
وهم في عز الانتشاء، تحيا الجزائر.. تحيا الجزائر..

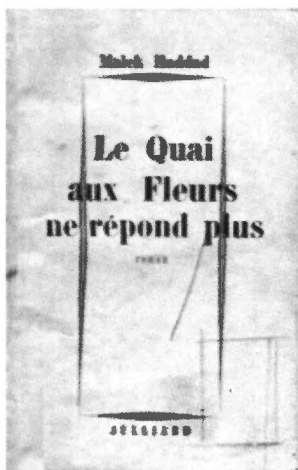
في هذه اللحظة بالذات غمر "مالك حداد" إحساس غريب، لم يألفه
من قبل، إحساس بارد، يشبه الرعشة التي تكتسح المرء حين يداهم أول
شعور بنيل شيء لم يكن يحلم بتحقيقه، أحس في البدء أنه لم يعد في حاجة
إلى الكتابة والإبداع، وكأن الاستقلال جعله مشبعا وغير قابل لتعاطي
الشعر. والواقع أنه لم يكن عاجزا، ولم ينضب فيه رحيق الإبداع..





ولأن "مالك حداد" صاحب الخامسة
والثلاثين حين استقلت البلاد كان يفكر بالعربية،
ويستمد شخوص وأبطال رواياته من عمق
المجتمع الجزائري، ابتداء من "الانطباع الأخير"
و"سأهبك غزالة"، و"التلميذ والدرس"،
و"رصيف الأزهار لا يجيب"، وديواني "الشقاء
في خطر"، و"استمع وأناديك"، وهما ديوانان
مليئان بالإنحساس الوطني النبيل...

واصل مشواره في وطنه المستقل، متفرغاً لمهامه الثقافية والسياسية
العديدة.



لقد كان يجتلس لحظات الكتابة ليخلو بنفسه في الغرفة.. كانت الغرفة واسعة، ومريحة، قبل أن يجلس خلف مكتبه المصنوع من الخشب الجوزي المنقوش، يخرج إلى حديقة المنزل، يملأ صدره بالهواء، وبعقب الورود المتداعي في جنبات البيت.. يحمل مرشاً، يملأه ماء، ثم ينهمك في تفان كبير في سقي شجيرات "النارج"، وأحواض الورد والزهر..

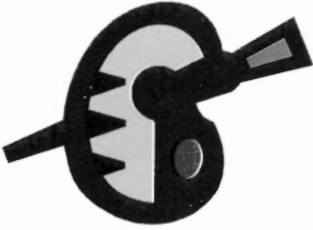


كم كان يشعر بالاستمتاع والحبور، وهو يقوم بهذا العمل.. ويمضي تحت تأثير الموسيقى الهادئة، المنبعثة من الاسطوانة.. ولاشئ أمامه سوى كراسة مدرسية.



كان يفضل دائما أن يكتب أشياءه في كراسات
مدرسية عادية، يصب فيها أشعاره الملهبة،
والمتدفقة بالوحي والإلهام، كان يشعر بسعادة
غامرة وهو يرى أفكاره تتبلور في قصائد أمام
ناظريه على المساحة البيضاء من الورق..

كان لا يكتب الشعر، كما يكتبه الشعراء عادة،
إنما كان يتنفسه كلمات وصور شفافة مليئة بالحياة،
والتشبث بالأمل.. كانت القصائد هي التي تكتبه، كانت تأتيه فيضا عارما يملأ
صدره.. وحين تغالبه الصور المترقصة، يخلع عباءته البربرية، ويستلقي
على الأريكة في تأمل عميق..



رسم في إحدى رسوماته، التي كان يغالب بها
موجة الإلهام العارم الذي يغمره امرأة قبائلية،
كانت تقظ مضجعه، وفي كل مرة تبخر تلك
الملاحم، وتبقى وحدها تلك المرأة قهز وجدانه
وتملأ حياته شعرا، وأنغاما.



حين أحب "مالك"، لم يحب امرأة تدعى "زهية صالح باي"، كانت "زهية"



زوجته
السيدة زهية صالح باي

زاهية في كبرياتها، وشموخها الموروث عن جدها الأكبر،
آخر بايات قسنطينة، كانت شغافة ولذيذة، كانت
كلما تقاطع من موسيقى تركية، على الرغم من هذا
لم يحب "مالك" ما فيها من الحسن والبهاء، ولكن أحب
فيها تاريخ قسنطينة مختزلا في طلعتها، أحبها امتدادا
طبيعا لهذه المدينة التي أرهقته بحبها، وملأت عليه دنياه.



مالك حداد، هو، هو، كما رسمته مخيلتي، شخصية نادرة، ومثيرة، جديدة
بالإعجاب.. حين تولى مهام مديرية الثقافة بوزارة الثقافة والإعلام طيلة
ثلاث سنوات، لم يتغير فيه شيء، كان متزنا، وأنيقا، بارعا في فن الكلام.

و حين حمل على عاتقه مهمة أمانة أول اتحاد للكتاب الجزائريين عام 1973، كان نموذجا للمثقف الفنان في أبعد المعاني..



مالك حداد في مؤتمر اتحاد الأكتباء العرب بالجزائر - أبريل 1975

من أشعاره:

الدخول المدرسي

على ورق مدرستي
بمداد التلاميذ

أستلهم أغنيتي من شارع العرب
في الطريق إلى منفاي
كل قصيدة أكتبها
بقصيدة أخرى

هؤلاء، قبل كل شيء أبنائي
في بلاد لا نجوم بها
وأمي هناك مثل يد تأتي
الخيول ابنتي

وأخاف أن أخاف
وأخاف على هذه الباخرة
التي تذهب بدون اشرعتها

أبدأ، أبدا

لا يمكن أن أحكي حبي كله
حينئذ أرى ابنتي في بلاد المحار
ربما كان انسيا طيبا
لكن كنت أفضل
أن يحكي لها الشيخ ابن باديس
باللغة العربية
ما كنت أغنية بالفرنسية



طالما أن الغد سيكون جميلا
أيها العنديل
يا جوهرة الله لي
أيها العنديل، يا موزاري
الصغير
موزار صغير بياقة ناصعة
البياض
أيها العنديل حدثني عن أمي
أيها العنديل عيناك مصباح
علاء الدين

.....

أيها العنديل اشتر لي
الطريق التي تصعد نحو أمي
خاصة عبر دروب لا تاريخ لها
في المنزل الذي يستعيد نوره
فوق الأفكار التائهة

.....

حديثني يا ابنتي
وأنت ذاهبة إلى المدرسة
في أقدار من عهد الباروك
وعبث اللامعنى
عن اينتي المنفية مثل قلبي
عن ابنتي الأغنية الصغيرة
الجريحة
عن نادية البعيدة عن الجزائر
والبعيدة عن جدتها

في شارع العرب
أيها العنديل، يا سيد الغابة
أيها العنديل، يا سيد صلواتي
المرة
أيها العنديل، صديقي
لا تغن في "الموزيكهول"
أيها العنديل، ابن عمي
لا تتم مع الصباح



ذكريات وشهادات

يحكي المرحوم "أبو العيد دودو" في كلمة له بمناسبة ذكرى وفاة مالك حداد الرابعة عشر، أنه قدم يوماً إلى مكتبه بمقر الاتحاد بشارع "ديدوش مراد"، وعلامات القلق بادية على ملامحه، وحين سأله "أبو العيد دودو" عن سر الحزن، الذي داهمه على غير العادة أجابه في تحسر، وألم:

- تصور، لقد ضحك مني ابني نديم هذا الصباح، قال لي:

- إن العربية لا تستقيم على لساني،

وأن لساني حين أنطق ألفاظها يلتوي،

ويتلعثم.. نعم هذا ما قاله لي هذا الصباح.



كتب مالك:

(..إن حب الجزائر قد رمانا في التعرجات الغريبة للتلاشي، اننا لم نهرب من المأساة، لأننا نحملها في ذاتنا وننقلها معنا، لأن رواياتنا وقصائدها قد ساهمت في التعريف بها، لأن لي شهادات حية تؤكد بأن تلك الروايات والقصائد كانت تذكر الأمل لدى أولئك الذين، حتى وإن لم يكن الأمل ينقصهم إلا أنهم كانوا يجدون في طيور السـنـنـوـنـو التي تتضمنها، سبباً آخر في الاعتقاد بالربيع...).



حين استبد بـ "مالك" المرض، ألزم بيته بالعاصمة، لما اشتدت عليه وطأته،
نقل على جناح السرعة إلى مشفى "مصطفى باشا".

لقد اشتد عليه الداء، وسرى الألم والوهن في كامل مفاصله، ولم يعد يرجى
شفأؤه بعد أن سرى الداء في كامل جسده، لم يعد أدنى قدر من الأمل يمكن أن
تتشبت به أخته "لويزة"، ولا زوجته "زهية"، ولا ابنه "نديم" ...



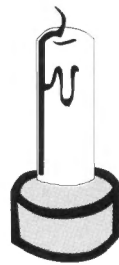
كانوا جميعا حول سرير، وهو شبه مسجى، بالكاد يطلع النفس ويتزله..
نظراته الزائغة كانت معلقة بفضاء الغرفة، كأنما كان يتابع شريطا متداخل
الأحداث، وشبه ابتسامة ترسم على وجهه.. أهله، أصدقائه المقربون،
يرفعون أيديهم إلى السماء بالدعاء، أو يتمتمون بكلمات خليط من العربية
والفرنسية داعين المولى التخفيف عنه.. وهو لا يبالي.. فقط كان يتسمم، عيناه

تستقبلان سقف الغرفة، كأنما كان يقرأ أشياء تمر متباطئة أمام ناظريه.

بصره مازال معلقا بسقف الغرفة.. الغرفة كانت نظيفة، ومعطرة، وبصره ثابت في السقف، لا يبرحه، رأى نفسه يمرق من ثانوية "دومال"، ويخترق حشود المارة، ويديه صورة "الشيخ عبد الحميد بن باديس"، هو يهتف: تحيا الجزائر..

مرت هكذا سريعة ومتداخلة، غير أن صورة غابة "جبل الوحش" جمدت في السقف، لا تبرحه، بوقد بدا أن روحه عانقت أجواء السماء، ثم ذلك في خشوع.

أطبق صمت ثقيل على الغرف التي جمعت الطابق الذي كان يحوي غرفته.. كان ذلك يوم الثاني من شهر جوان عام 1978.



.....

اصدقائي
انظروا إلى الجبل واطركوني أحلم
سأذهب لأموت في الجزائر.

مالك حداد



أعماله

ترك المرحوم مالك مجموعة من الأعمال في الرواية والشعر، وأهم هذه الأعمال التي طبعت في حياته هي:

- الشقاء في خطر (مجموعة شعرية)، باريس عام 1956.
- الانطباع الأخير (رواية)، مطبعة "روني جيليار" باريس، عام 1958. وأعيد طبعها في مطبعة "بوشان".
- ساهبك غزالة (رواية)، مطبعة "روني جيليار" باريس، عام 1959.
- التلميذ والدرس (رواية)، مطبعة "روني جيليار" باريس، عام 1960.
- رصيف الأزهار لا يجيب (رواية)، مطبعة "روني جيليار" باريس، عام 1961.
- أستمع وأناديك (مجموعة شعرية)، دار "فرانسوا ماسبيرو" باريس، عام 1961.
- تأملات نقدية، عبارة عن مقدمة وضعها لديوانه (أنصت وسأناديك).

